تنظيم العلاقات الإجتماعية

الإسلام والنظام

قال تعالى :﴿أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾.(١)

تصلح هذه الآيات الكريمة لنستدل بها على معان مختلفة تستدل بها على الله عز وجل ، ونستدل بها على بديع صنعه فى الكون ، ونستدل بها على وجوب التأمل فى خلقه لنصل من هذاالتأمل إليه سبحانه .

ولكننا هنا نريد أن نستدل بها على فضيلة بثها الله فيما خلق وأحكم ، وعلى المؤمنين أن يبحثوا عنها ويعرفوها ، فإذا عرفوها فيجب عليهم أن يتأسّوا بها ، لأنهم ما مأمورون أن يتخلقوا بأخلاق الله ... تلك الفضيلة هى النظام .

والنظام من أبرز المظاهر الحضارية للمجتمعات الحديثة ، لأنه يشير إلى بنيانها المتلاحم المتناسق ، وهو وإن كان مظهرا تراه العين وتحسه الجوارح ، فهو قبل ذلك حقيقة مستقرة فى النفوس ، كائنة فى الطبائع ، ثم هى منعكسة بعد ذلك على كل ما حولنا من مظاهر الحياة .

والآيات الكريمة التى ذكرناها توقظ مشاعرنا إلى بديع صنع الله ودقة إحكامه ، كما تشير إلى تنسيق مظاهر الكون وحسن نظامه فالسماء بناء محكم دقيق ، و لم تنقصه إلى جانب هذا الإحكام وهذه الدقة زينة تبرز روعته وتجلو جماله . والأرض ممتدة مترامية الأطراف ثابتة الأركان ، وفيها أيضا ما يروق العين ويبهج الخاطر ، ففيها كما قال الله عزّ وجلّ :﴿من كل زوج بهيج ﴾.

فإذا لفت القرآن أنظار الناس إلى دقة الخلق ، فهو ينبههم أيضا إلى حسن النظام ، وهو يستثير حواسهم إلى التأثر ، وينبه مشاعرهم إلى الإقتداء .

---

(١) سورة ق / ٦-٨ .

ولقد خلق الله جلت قدرته الحياة كلها على أروع ما يكون النظام وأكمله ، لايختلف على ذلك أثنان ، ولايمارى فى هذه الحقيقة أنسان أيّا كان دينه وكائنا ما كان فكرة وأنتماؤه وهويته . فالأرض التى نحيا عليها بشكلها الكروى وبالدقة المحسوبة فى سرعة دورانها ، وباقى الأجرام وما تربطها من علاقة وهى فى أفلاكها تسعى وتسير بملايين الملايين من الأعداد وبمواقعها الهائلة على ملايين الملايين من الأبعاد ، مما جعل الله سبحانه وتعالى . وهو أعلم بما خلق . يقسم بقوله :﴿فلا أقسم بمواقع النجوم ، وأنه لقسم . لو تعلمون عظيم﴾[1]

بل حتى فى جسم الكائن الحىّ وما ينتظم به من قوانين الحركة والحياة ، وما خصص من الوظائف لكل خلية من خلاياه ، كل ذلك ينطق بالإعجاز فى هذا النظام الربانى البديع والقرآن كتاب الله ودستور المسلمين ، شاء سبحانه أن تأتى آياته لتقول للناس على تعاقب أجيالهم وعلى إختلاف ألسنتهم وألوانهم أنه من عند الله ، وكما أن آيات الله الكونية قد أحكمت بهذا النظام الرائع فقد جاءت آياته القرآنية صورة أخرى لهذه الدقة وهذا الأحكام .

فمن الآيات ما يحض على التفكير فى هذا النظام الربانى والتأمل فى قدرة الله المبدع ، وهى كثيرة منبثة فى سور القرآن ، تصف هذا النظام وتصوره لتلتفت إليه أذهان الناس ، ففى مجال الفلك :﴿والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾.[2]

أليس ذلك عنوانا على النظام فى ملكوت الله ؟! الشمس لها مجال تسير فيه وغاية ينتهى إليها ، والقمر بتدرج فى منازل الضوء ويهبط فى منازل الشحوب ، وكأنه يحكى حياة الإنسان على الأرض . فالله ﴿خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعفٍ

---

(١) سورة الواقعة / ٧٥-٧٦ .

(٢) يس / ٣٨-٤٠

قوةٍ ثم جعل من بعد قوةٍ ضعفاً وشيبةً ﴾.[1] ومسار الشمس غير مسار القمر ، وغاية كل منهما تختلف عن غاية الآخر ، وهناك قوة قادرة حكيمة تنظم " المرور ، بينهما فلا يختل التنظيم ، ولا يرتبك المسير .﴿وكلٍ فى فلكٍ يسبحونْ ﴾.

وفى النبات يصف الله جلت حكمته الثمار بقوله :﴿والنخل باسقات لها نضيد ﴾ أى منظم، وتصف الآية إلتقاء النهر العذب بالبحر المالح فنقول :﴿مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخٌ لايبغيان ﴾ "فهما يلتقيان ، ولكن هناك " برزخا" يحول دون ملوحة العذب ، وعذوبة الملح ، فهما " لا يبغيان ".

ويدرك الإنسان النظام الرائع فى تنسيق جسمه ، كما يتأمل الدقة الحركية فى أجزاء هذا الجسم . بل وحين يقرأ من هذا العالم الزاخر الذى أنطوت كل خلايا الجسم عليه ، لايملك إلا أن يسجد لله المبدع سبحانه تقديرا وخشوعا وإنبهارا وهناك من الآيات الأخرى مايوحى بمدى إهتمام القرآن بالنظام ، وهى الآيات التى تشتمل على التعاليم المختلفة فى المواقف المختلفة . نجد ذلك فى تنظيم الصلاة والتخطيط لها فى وقت الحرب " ﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك ، وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ، ولتأت طائفة أخرى لم يصلّوا فليصلّوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ﴾[2] .

فالأيات تخطط لتنظيم الصلاة كما تخطط لتنظيم الحرب ، والمسلمون المحاربون فى سبيل الله " عيونهم مفتوحة تترقب العدو ، وقلوبهم مشغوله تطمئن بذكر الله والمسلم لا يدخل إلى الصلاه الا عن طريق الوضوء ، حيث يقول رسول الله ﷺ : " لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ " ، فإذا قام للصلاة وقف منتظماً لأن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص " .[3]

---

[1] الروم : ٥٤

[2] النساء : ١٠٢ .

[3] الصف / ٤

ووقف فى هذا الصف المستقيم لأن ا لله لا ينظر إلى الصف الاعوج ، فإذا إعوج الصف فى الصلاه ، كان على الإمام أن يقومه قبل أن يبدأ صلاته ، وكأن الصلاة لا ترتفع خالصه إلى ا لله الا من خلال صف مستقيم ومظهر منظم والمتتبع لآيات ا لله البينات يجد هذا التنظيم الربانى فيما لا يكاد يحصى من الأمثله من آيات العباد كالصلاة والصوم والزكاه إلى آيات تتناول العلاقات الإجتماعية كالتربية والرضاع والزواج والطلاق والميراث وغير ذلك من عديد المجالات .

ولقد إنعكس أثر هذا النظام فى قيام المسلمين بعبادتهم تطبيقاً لما جاء فى هذه الآيات ، واسترشاداً بهدى الرسول الكريم صلوات ا لله وسلامه عليه ، فأنت ترى فى صلاة الجمعة مثلاً العديد من المسلمين وقد إحتشدوا فى المسجد فى خشوع ، ما بين متعلم وأمى ، وصبى وشيخ ، وما بين محب للكلام وميال إلى الصمت وقد التزموا جميعا بالهدوء والإنصات للخطيب ، فلا تكاد تحس بوجود كل هذا الحشد. فإذا قاموا إلى الصلاه تعاونوا على تنظيم صفوفهم بمحاذاة المناكب والأقدام لا يشذ عن ذلك صغير أو كبير متعلم أوغير متعلم .

وليست العبادات فى الإسلام المجال الوحيد لتعليم النظام والإلتزام به ، بل ان المسلم مأمور بالتزام النظام فى كل أحواله ، وبأن يجعله من عاداته فى كل أموره ، وبأن يحرص حتى على زينته ومظهره . ان تأهب للذهاب إلى المسجد سمع قول ا لله عز وجل : ﴿ يابنى أدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ [1] وإن جلس بين الناس جلس بمظهر جميل وسمت كريم . فعن زيد بن اسلم أن عطاء بن يسار أخبره أن رسول ا لله ﷺ كان فى المسجد فدخل رجل ثائر الرأس واللحية فأشار رسول ا لله ﷺ بيده أن اخرج ، كأنه يعنى اصلاح شعر راسه ولحيته ، ففعل الرجل ، ثم رجع ، فقال رسول ا لله ﷺ : " اليس هذا خيرا من أن يأتى أحدكم تأثر الرأس كأنه شيطان " ؟ ! لم يأت الاسلام اذن بمجموعه من الترانيم المبهمة أو التعاليم المطاطه ، ولكنه جاء يحض على استشعار عظمة ا لله والتعرف

---

[1] الأعراف / ٣١ .

على إبداعه ، كما جاء يحض فى كل مناسبة على اتباع النظام والعمل به ، ذلك لأن كلمه النظام لا تنصرف إلى مجرد بعض الحركات العسكريه ، وانما النظام هو سر بقاء هذا الكون ، ولولاه لاصطدمت الأجرام فى أفلاكها ولاختلط العذب الفرات بالملح الأجاج ، ولشاع الدمار والفوضى فى جسم الإنسان .

ويحدثنا علماء النفس بما يسمى بانتقال أثر التدريب بمعنى أنه حين يدرب إنسان فى مجال ما ، فإن المهارة التى يكتسبها من هذا التدريب فى هذا المجال تفيده فى مجال آخر مشابه ، فهو إذا تدرب على قيادة السيارات مثلا يساعده ذلك فى تعليم قيادة الطائرة .

فما بالنا نحن معشر المسلمين ازاء تعاليم ديننا الحنيف ؟! تحض كلها على النظام ، ثم لا ينتقل ذلك إلى سلوكنا فى مجتمعاتنا أن أكثر المشكلات التى تواجهنا فى هذه المجتمعات ترجع إلى سوء النظام ، وهذه المشكلات تجابهنا فى الطرقات والمرافق العامه والمواصلات . ولسنا نحتاج فى حلها إلى قانون صارم بقدر ما نحتاج إلى وعى رشيد ، والنظام سلوك عملى صادر عن اقتناع شخصى ، فلينفع كل منا نفسه ، ويهذب كل منا سلوكه ، وليحول كل منا آيات القرآن فى الصدور ترجمة عملية بالجوارح حتى لا يصدق علينا قول ربنا عز وجل : ﴿ يأيها الذين أمنوا : لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ﴾ .

حق الجار والوصية به

﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخورا ﴾ (١)

تحدثت هذه الآيه الكريمه عن بعض أصحاب الحقوق الذين يوصى بهم القرآن ، ويدعو إلى حسن معاملتهم ورعايتهم ، والإسلام دائما يدعو إلى حسن المعاملة ولين

---

(١) النساء /٣٦ .

الجانب مع الناس جميعا ، ولكن هؤلاء المذكورين فى هذه الآيه لهم حقوق بقدر مالهم من صله وقرابه بالإنسان .

فالوالدان لهما حق الطاعة والرحمة ، وذوو القربى لهم حق القرابة ، واليتامى والمساكين لهم حق العطف والحنان ، وللجار حقوق على جاره ، وقد دعا اليها الإسلام الحنيف ، ورعاها القرآن الكريم والسنه النبويه المطهرة .

والجار أشبه بعائله الإنسان ، وإذا أخلص فقد أصبح إلى الإنسان أقرب من قريبه فى النسب ، لأنه ملتصق به يعرف أحواله عن قرب ، ويسمع صوته إذا ناداه .

وقد يأنس الإنسان لجاره القريب أكثر ما يأنس لقريبه البعيد ، ويحتاج كل جار إلى جاره فيتعاونان ويتناصران أكثر مما يحتاج الأقرباء الذين تناءت بهم الديار وشط بهم المزار . والإنسان - كما يقول علماء الإجتماع - مدنى بطبعه ، لا يحب أن يعيش وحيداً ، ولا يرضى أن ينعزل بعيداً ، ولو تأملنا أمزجة الناس فى اختيار البيوت التى يسكنونها لأدركنا هذه الصفة ، فإنهم يختارون مساكنهم فى المناطق المعمورة الآهله بالسكان ، حتى وان لم يعرف بعضهم بعضا و لم يسبق بينهم لقاء ، فان الاجتماع مطلوب لذاته ، وان الأنس النفسى ليتحقق بمجرد معايشه الناس قبل أن يصطفى الإنسان منهم صديقاً ، وقبل أن يفضل بعضهم على بعض .

ولعل معنى هذا الإلف الإنسانى هو الذى أراده الرسول ﷺ بقوله عن أحب الناس اليه وأقربهم مجالس يوم القيامه " الموطئون أكنافا ، الذى يألفون ويؤلفون " .

ولقد جاء فى الأثر : خذ الجار قبل الدار ، وخذ الرفيق قبل الطريق ، لأن الجار هو الذى يسمع نداء جاره ويستطيع أن يهب لنجدته إن استغاث به ، ولأن الرفيق يهون على الإنسان مصاعب الطريق ، فيؤنسه من وحشته ، ويؤمنه من خوفه ، ويقاسمه همه إذا طال المسير.

وإذن فإن البحث عن الجار ، وطلب معاشرة الناس من ملامح الإنسانيه التى هى من الطباع المركوزة فى نفس الإنسان ، ولا تجد إنسانا ينفر من معاشرة الناس ويميل

إلى الإنطواء والعزله الا إذا كان فى ظروف غير طبيعيه تملى عليه الوحدةوتنأى به عن الناس .

فإذا أحس الإنسان أنه فى وسط اجتماعى ، وأن الجيران من حوله يشاركونه المكان الذى يعيش فيه ، ويقاسمونه الحى الذى يسكنه ، فقد أصبح لكل منهم حقوق قبل الآخر ، وقد أصبح على كل منهم واجب تجاه أخيه .

ولقد حدد رسول الله ﷺ حقوق الجيران ومراتبها فى حديث يرويه عنه جابر بن عبدالله رضى الله عنه حيث يقول : " الجيران ثلاثة : فجار له ثلاثة حقوق : حق الجوار وحق القرابه وحق الإسلام ، وجار له حقان : حق الجوار وحق الإسلام ، وجار له حق واحد : حق الجوار " .

وهذا الجار الأخير هو الذى لا يمت إلى جاره بصله الا صله الجوار ، فلا هو قريب له ، ولا هو من أهل دينه ، ولكنه صاحب حق قبل جاره المسلم ، وهذا الحق ايضاً حق كبير .

فلقد ثبت الأمر بالإحسان فى معامله الجار غير المسلم ، لأنه ان لم يكن أخا فى الدين فانه أخ فى الإنسانيه ، وان لم يتصل بجاره بصله نسب فإنه قد اتصل به بصله الجوار ولقد روى البخارى فى الأدب المفرد عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما " أنه ذبح شاة فجعل يقول لغلامه : أهديت لجارنا اليهودى ؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول : مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه " .

وهذا يدل على أن ابن عمر رضى الله عنهما قد فهم من الوصايا المطلقة فى الجار أنها تشمل المسلم وغير المسلم ، ولقد جعل رسول الله ﷺ الإحسان إلى الجار من معالم الإيمان ، فعن أبى شريح الخزاعى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الأخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت "[1] والحكمه فى الوصيه بالجار

---

[1] رواه مسلم بهذا اللفظ وروى البخارى بعضه .

هى التى تعرفنا سر الوصيه ومعنى الجوار : فالجار يرى جاره ويلتقى بـه ، فيشـتر كان معـا فى أكثر الطريق ، ومن هنا وجب حسن المعاملة وحسن العشـرة ، لتصـير الحيـاة سـهلة ، وتصير الدار التى يسكنها الإنسان طيبة المقام .

وليس هناك تحديد لعدد الدور التى تجعل اصحابها جيرانا ، وإنمـا ذلـك راجـع إلى العرف العام فى تحديد القرب والبعد . ولقد كان الإحسان إلى الجار من عادات العـرب ، حتى كان إيقاد النار لتلمع فى الظلام ، وإطلاق الكلب لينبح فى سكون الليل من ملامـح الكرم وسرعه النجـدة فـى الصريـخ ، فلمـا جـاء الإسـلام جعـل الإحسـان إلى الجـار مـن الأخلاق التى دعا اليها المسلمين ، وأكدها فى القرآن الكريم والسنه النبويه الشريفة .

واذا تأملنا ما فعلته المدنية الحديثة فى علاقات الناس لأدركنـا أهميـه العنايـة التـى أولاها الإسلام لعلاقات الجيران .

فلقد فصلت هذه المدنية الجار عن جاره ، وأغلقت على كل منهما بابه ، وطـوت صدر كل منهما علـى همومـه الخاصـة ، فـلا يعـرف الجـار مـا عنـد جـاره ، ولا يشـارك أحدهما الآخر فى مشاعره حيث باعدت بينهما الأبواب المغلقة والأسرار المطويه .

ومن هنا لم يحرص الجار على مشاعر الجار ، فهذا المنزل يفيض بأفراحـه ، وأمامـه منزل مقابل يضج بأتراحه ، وكل منهمـا بعيـد عـن الآخـر بعواطفـه وان كـان قريبـا منـه بحدوده .

ومن مظاهر الإساءة إلى الجيران كما نراه فى هـذه الأيـام إسـاءة اسـتعمال الحريـة الشخصية بما يؤذى الصحـة أو يضـر بالمشـاعر ، والحريـة إذا تطـاولت حتـى طغـت علـى حقوق الناس كانت ضرباً من الفوضى ولونا من الإيذاء ، ولقد حـذر رسـول الله ﷺ مـن هذا الإيذاء ، فجعله ينقص درجه الإيمان ، فقال فيمـا يرويـه عنـه أبـو هريـرة : " والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن : قيل من يا رسول الله ؟ قـال: الـذى لا يـأمن جـاره بوائقـه" [1] والبوائق هى الغوائل والشرور ، وهى الصـــور التى يقوم بها بعض الناس من إيذاء

---

[1] متفق عليه .

وإقلاق للجيران .

واذا رأينا الرسول ﷺ يوصى أباذر بالإحسان إلى الجار حتى يقول له " إذا طبخت مرقه فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك " فاننا نفهم من هذه الوصيه ان من مظاهر الإحسان إلى الجار أن نبره فنقدم اليه بعض ما نأكل ، لا لحاجته إلى الطعام ، ولكن لتأليف قلبه وكسر الحواجز النفسية التى بيننا وبينه .

فكيف بنا الآن وقد تعددت ألوان الطعام ، وكثرت أنواع الفواكه ، وتسابق الناس إلى التغالى فى المظاهر غير عابئين بما يخلفه ذلك من امتعاض العاجزين وكسر قلوب الفقراء غير القادرين وإذا كان من حقنا أن نتمتع بالنعم التى أنعم الله بها علينا ، لأن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عباده ، وإذا لم نستطع أن نجود ببعض هذه النعم على المستحقين من الجيران ، فلا أقل من أن نستخفى بها ، أو نعتدل فى الظهور أثناء استعمالها فإن خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله تعالى خيرهم لجاره .

واذا أحسن كل جار إلى جاره تكونت مجتمعات صغيرة متحابه ، وانضمت هذه المجتمعات لتشكل المجتمع الكبير الذى يلتقى على المودة ويتعامل بالحب ، وهذا الحب هو الذى افتقدناه فضاعت من مجتمعاتنا ملامح التماسك وأواصر القربى .

وحين يعود هذا الحب المفقود تتجدد الروابط وتعود الألفة وتستقر المشاعر ، وبها نصل إلى ما انقطع فيصدق فينا وصف القرآن الكريم : ﴿ الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ﴾ .[1]

---

[1] الرعد /٢١ .

مجتمع التواصى بالحق والصبر

يقول الله تعالى:﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وألئك هم المفلحون﴾[1] .

إن التناصح سمة من سمات الأمم المتماسكة، لأنه يدل على حرص الأفراد بعضهم على بعض، وهى وسيلة اتباع الحق والإقلاع عن الاخطاء، ومن القواعد المسلمة انه لاتقوم لقوم قائمة إلا إذا كان لهم جامعة تضمّهم ووحدة تجمعهم وتربط بعضهم ببعض، فيكونون بذلك أمة حية كأنها جسد واحد، يقول الرسولﷺ :" مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الاعضاء بالسهر والحمى "[2] .

وإن مما يحفظ وحدة الامة ويبقى على تماسكها كلمة الحق يقولها من يدركها لمن غفل عنها، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهما يحتاجان إلى قوة النفس وشجاعة القلب والضمير، لأنه كثيرا ما يأمر الناس بالمعروف فيواجه بالسخرية، وينهى عن المنكر فيواجه بالاستنكار والإيذاء، ولقد كان من وصايا لقمان لأبنه:" يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر وأصبر على ما أصابك أن ذلك لمن عزم الأمور "[3] ، ولقد جاء الحث بالصبر على الأذى بعد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لأنهما يتطلبان الصبر على التبليغ والصبر على الأذى بعد التبليغ، كذلك كان أنبياء الله: ما جاء أحد منهم بكلمة الحق إلا أوذى، وما نهى عن رذيله فاشية فى قومه إلا اضطهد، وكذلك كان المصلحون الذين ساروا على دروب الأنبياء: دعوا بالحسنى فقوبلوا بالعنف، وقالوا كلمة الحق فحوربوا بالباطل، لأن كلمة الحق كما تحتاج إلى نفس عالية تبلّغها، فهى تحتاج إلى نفس عالية لتسعها وتتقبلها، عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول اللهﷺ قال:"ما من

---

(١) آل عمران / ١٠٤.

(٢) رواه احمد ومسلم.

(٣) لقمان /١٧ .

نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم أنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون، ويفعلون مالا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل"[1].

فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر سياج يحفظ الجماعة ويحمى وحدتها، وهو برهان على صلاح الأمة واستعدادها إلى الخير، حيث يكون فيه الصالحون الذين ينصحون، ويكون فيها الصالحون الذين يستمعون النصح، ولقد قص الله علينا شيئا من أخبار الأمم السالفة لنعتبر بها فقال:﴿لعن الذين كفروا من بنى أسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾[2] على انه يراد بالمعروف ما عرفته العقول والطباع السليمة، ويراد بالمنكر ما أنكرته العقول والطباع السليمة، ولايلزم لمعرفه ذلك ان يتعلم الانسان كثيرا من الفلسفات أو يقرأ كثيرا من الكتب، فان الحلال كما يقول رسول اللهﷺ بيّن والحرام بيّن، والأثم ماحاك فى الصدور وخشيت ان يطلع عليه الناس .

ولكن فضيلة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر تحتاج-كما قلنا- إلى فطرة صافية تعرف المعروف فتتبعه، وتنكر المنكر فتتجنبه، وتحتاج إلى قلب جرىء يجهر بالحق ويتصدى للباطل، فلقد عدّ الرسولﷺ الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر من سادة الشهداء حيث قال:"سيد الشهداء حمزة رضى الله عنه ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه

فقتله"[3] كما تحتاج هذه الفضيلة إلى نفس قوية تصبر على المكروه وتتحمل الأذى فى سبيل الله.

---

(١)المائدة /٧٨-٧٩ .

(٢) المائدة /٧٨-٧٩ .

[3] روى مسلم وابو داود والترمذى وقال حديث حسن .

وذلك من ملامح المجتمعات الصالحة، فهى تملك طهارة الضمير لتصلح نفسها، وتمتلك قوة النفس لتصلح غيرها، وتقول كلمة الحق فى المقام الذى يجب ان تقال فيه، كما يتسع صدرها لكلمة الحق يهديها غيرها اليها .

وماضرّ المجتمعات الحديثة إلا المداراة والمجاراة، فتشيع رذيله فى مجتمع حتى تصير عرفا عاما، فتتغاضى بقية المجتمعات عنه، باسم المجاملة تارة وباسم الحياد تارة آخرى، وقد لاتتوقف هذه المجاملة عند السكوت أو المداراة، بل قد تصل إلى المجاراة حيث تستهوى هذه الرذيلة مجتمعا آخر فيقلدها وتشيع فيه وتبدو فى تصرفات أبنائه، والرذائل سريعة الأنتشار كما تنتشر النار فى الهشيم، ولكنها داء وبيل يسكن جسوم الأمم، فيظل ينخر فيها من الداخل حتى يحولها إلى هيكل متها ومن الخارج.. وذلك هو الهلاك المبين .

عن أبن مسعود رضى الله عنه قال:قال رسول الله ﷺ "ان أول ما دخل النقص على بنى أسرئيل انه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: "اتق الله ودع ما تصنع فانه لايحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك ان يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوبهم بعضهم ببعض" ثم قال:"لعن الذين كفروا من بنى أسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون..ثم قال"كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ، ولتقصرنه على الحق قصرا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم"[1] .

ولقد بدأت الآية بالدعوة إلى الخير وهى تهيئة النفوس للصلاح العام ، وتهذيب الفطر لتنجذب إلى المعروف وتنفر من المنكر ، والخير كلمة جامعة لكل المعانى الصالحة ولقد اتجه بعض المفكرين إلى ان المراد بالخير هو الاسلام إذ الاسلام دين الله على لسان جميع الانبياء لجميع الامم ، وهو الاخلاص لله تعالى والرجوع عن الهوى الى حكم الله

وقد سمانا الله الأمة الوسط ، وخير الامور الوسط ، وذلك لندعو الناس إلى الحق

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن .

الذى عرفناه ، ونأخذهم إلى الخير الذى ائتمننا الله عليه : ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾[1] وجعلنا كذلك ﴿خير أمة اخرجت للناس﴾، لا لنستعلى عليهم، ولا نستبد بحقوقهم، ولكن لتكون كما أرادنا الله ﴿تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾.

فمراحل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تبدأ أولاً بالدعوة الى الخير، أو الدعوة إلى الإسلام، وتهيئة النفوس للبر والتقوى .

ثم يكون الأمر بالمعروف والنهى عاملا على وحدة الامة ومانعا من فرقتها، لأنها إذا اجتمعت على اتباع المعروف والآنتهاء عن المنكر سيطرت على الأمم، وتلاشت الاهواء الشخصية بين أفرادها، فإذا عرض البغى والحسد لواحد منهم تذكر وظيفته الغالية الشريفة التى لا تتم الا بالتعاون والاجتماع، فأزالت الذكرى ما عرض، وشفت النفوس قبل تمكن المرض .

ولايتصور ان الامة كلها قد أقامت على الحق واجتنبت الباطل، ومن ثم فهى لا تدعو إلى الخير إلا غيرها من الأمم، ولكن الدعوة والأمر والنهى تكون بين المسلمين بعضهم والبعض الاخر ببيان طرق الخير وتطبيق ذلك على أحوال الناس، وضرب الأمثال المؤثرة فى النفوس ليأخذ كل سامع منها بحسب حاله، وتكون بالدلالة على الخير والحث عليه، والنهى عن الشر والتحذير منه .

ولقد ذكر رسول الله ﷺ طائفة من أمته، يؤمنون به ولا يرونه، ثم قال لصحابته ان للواحد منهم أجر سبعين، فقالوا:سبعين منا أم منهم .فقال: بل منكم أنتم.. أنتم تجدون أعوانا على الخير ولا يجدون .

والمعاونة على الخير تنشره بين الناس، وتجعله شيئا فى سلوكهم، وتقوى أنصار الخير وفاعليه، لأن الفضيلة تحتاج إلى مجتمع يغرسها ويحرسها ويجتمع عليها .

وإذا كنا نرى التناصح قد صار سببا للتخاصم والتدابر، حتى صار من العسير ان

---

[1] البقرة / ١٤٣ .

تنصح أخا أو صديقا أو ولدا، وحتى أضطر المصلحون والغيورون ان يلجئوا إلى الكنايات والتعريض لا المواجهة والتصريح، فان الأمة التى يفشو فيها الضيق بالنقد الصريح ومطاردة كلمة الحق هى من الأمم التى تودّع منها كما قال نبى الإسلام ﷺ ، وانما الكلام فى الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع الأمة المسلمة التى عرفت نعمة الله إذ كانت على شفا حفرة من النار فأنقذها الله منها، ومع من يشاركها فى الشعور ويوافقها فى سنة الأهتداء، وهؤلاء يصدق عليهم قول الرسول ﷺ :"المؤمن أخو المؤمن :يكفّ عليه ضيعته ويحوطه من ورائه"[1] ، وان ما نراه الآن من سوء الحال كان أثره التفريط فى كلمة الحق، وترك التناصح، واتباع كل فرد لهواه .. ومن العجيب أن يحتاج بعض الناس فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بقوله تعالى ﴿يأيها الذين أمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم﴾[2] ، ويتبادر الى أذهانهم أنها تحث على أن يشتغل كل منا بإصلاح نفسه، وألا يتعرض لغيره فإن هدايته لنفسه وضلا له لا يعود الا عليه .

وهذا فهم ملتو لآية مستقيمة، ولقد قال أبو بكر فيها:" انكم تقرءون هذه الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإنى سمعت رسول الله يقول:" أن الناس إذا رأوا المنكر و لم يغيروه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه، وقد روى الترمذى أن رسول الله ﷺ قال فيها: بل ءتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام، فإن من ورائكم أياما الصابر فيهن مثل القابض على الجمر"[3] .

وهكذا يصحح الرسول ﷺ ما ترامى إلى وهم الناس فى زمانه من الآية الكريمة، ونحن اليوم أحوج إلى هذا التصحيح، فلقد أصبح مهمة الداعين إلى الخير شاقة، وصار طريق الآمر ين بالمعروف.. والناهين عن المنكر محفوفا بالمكاره والأشواك، وما أيسر أن

---

(١) رواه الطبرانى والبخارى وابو داود .

(٢) المائدة / ١٠٥ .

(٣) قال الترمزى: حديث حسن غريب صحيح ورواه ابو داود وابن ماجه .

يلجأ الضعاف من الناس إلى تأويل لهذه الآية على غير وجهها ليعفوا أنفسهم من مشقة النصيحة تلقى اليهم أو يكلفون هم بالقائها إلى غيرهم . .

وهذا الدين لايصلح إلا بأن يدافع عنه أهله، وان يبذلوا ما فى طوقهم لرد الناس إليه، كذلك جرت سنة الانبياء والمرسلين والسلف الصالحين على الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإن كان محفوفا بالمكاره والمخاوف﴿فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن أتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لايهدى القوم الظالمين﴾[٢] .

---

[٢] القصص/ ٥٠ .

الدعوة إلى الخير

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾[1] .

لقد جعلنا الله بفضله ومنته" خير أمة أخرجت للناس"، لا لاننا خير أجناس الارض، ولا لميزة أختصنا بها على سائر البشر، ولكن لاننا كما وصفنا سبحانه﴿تامرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله﴾[2] ، وهذه خصائص الامة الخالدة التى ان فنى افرادها فلا تفنى مبادئها، وان ذهب شكلها المادى فلا يذهب تاريخها الروحى .

وان حضارات الامم تختلف باختلاف مصادرها وأسسها، فهناك حضارة تقوم على اسس عسكرية، وهناك حضارة تقوم على اسس فنية أو عمرانية أو غير ذلك، فتبقى حين يفنى هذا الأساس وتضيع معالمه فى زوايا التاريخ .

وقد يكون لحضارة الأمة الاسلامية روافد من الآداب أوالفنون أو ما إلى ذلك، لكن الأساس الذى تقوم عليه هذه الحضارة، هو أساس متين من المبادئ الخالدة التى لاتضيع وإن طال بها الزمن، ولاتغنى وان امتدت بها القرون،لأنها مبادئ موصولة الأسباب بالسماء فهى موصولة الأسباب بالله، وما كان لله دام واتصل .

والدعوة إلى الخير من أبرز مبادئ هذه الحضارة الخالدة العريقة، أو هى اساس هذه الحضارة، فلقد نزل القرآن دعوة إلى الخير، حيث كان الخير كلمة جامعة لكل الفضائل، وحيث كان التواصى بالحق سمة بارزة من سمات المؤمنين، فهم الذين "تواصو بالحق وتواصو بالصبر" .

ولقد كان رسول الله ﷺ يحث المسلمين دائما على الدعوة إلى الخير، ويرغبهم فى كلمة الحق، حتى يجعل من دعا إلى الخير كمن قام بفعله فيقول مثل قوله:"﴿من دل على خير فله مثل أجر فاعله﴾ " ، "﴿ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه

---

(١) آل عمران / ١٠٤.

(٢)آل عمران /١١٠ .

لاينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل اثام من تبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئاً ﴾.[1]

ولقد خطب فى الناس يوما فتلا قوله ﷻ:﴿يا أيها الناس أتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء وأتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾ [2] ثم قال :﴿تصدّق رجل من دينار ، من درهمه . من ثوبه . من صاع بره . من صاع تمره . حتى قال : تصدق ولو بشق تمرة ، فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها ، بل قد عجزت فقال رسول الله ﷺ : من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شئ" [3] .

ومن القواعد المسلمة أنه لا تقوم لقوم قائمه الا إذا كانت لهم وحدة تجمعهم ورابطة تربط بينهم ، والتواصى بالحق والدعوة إلى الخير من أقوى الروابط ، لأن الأمة بهذه المبادئ تكون أمة حية كأنها جسد واحد ، كما ورد فى حديث : " مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " [4] .

وإذا كانت الوحدة الجامعه هى اساس كل أمه سواء أكانت هذه الأمه مؤمنه أم كافرة ، فإن المؤمنين أولى بالوحدة من غيرهم ، لأنهم ينتمون إلى مله هى ملة التوحيد ، ولأنهم يعبدون رباً واحدا هو رب العالمين ، ولانهم يتجهون فى صلاتهم اتجاها واحدا هو قبلة المسلمين ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون ﴾ [5] .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) النساء / ١.

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه أحمد ومسلم .

(٥) الأنبياء /٩٢

ولما كان لكل جامعة وكل وحدة حفاظ يحفظها ، فقد أرشدنا الله سبحانه وتعالى إلى ما نحفظ به جامعتنا التى هى مناط وحدتنا فقال : : "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون " وجعل من دعاء المؤمنين المقبولين قولهم : ﴿واجعلنا للمتقين اماما ﴾ [1] .

وكثيرا ما يضيع الحق بين الناس ، لأنهم كرهوه ، بل لأنهم لم يعرفوه ، فهم فى حاجة إلى من يذكرهم بالحق ، ويرشدهم إلى الخير ، لأن كلمة الحق تتطلب جماعة تتواصى بها ، ولأن البر ينمو فى وسط مجتمع يعين أفراده بعضهم بعضا عليه .

وان من مشكلات مجتمعنا المعاصر أن الإنسان قد لا يجد الأعوان على الخير ، فيظل يحمله حتى ينوء به كاهلة فيضعف عن مواصلة الطريق ، أو تضعف قبضته على دينه ، لأنه يكون حينئذ كالقابض على جمر ، أو يحاول أن يجهر بكلمة الحق فيصرفه عن ذلك قوم أصموا آذانهم وأغلقوا قلوبهم ، فيؤثر السلامه ويطوى كلمته بين جنبيه ، وقد يجرفه التيار فينسى كلمته ، وينسى نفسه ويتوه بين الزحام .

ولقد سئل رسول الله ﷺ : أى الأصحاب خير يارسول الله ؟ قال : من إذا ذكرت الله أعانك ، وإذا نسيته ذكرك ، قيل : فأى الناس شر يا رسول الله ؟ قال : من إذا ذكرت الله لم يعنك وإذا نسيته لم يذكرك فالرسول ﷺ هنا يضع مقياسا لصدق الصحبة هو التناصح والتعاون على الخير والتذكير بالمعروف ، وهو مقياس دقيق يقيس إخلاص الصديق لصديقه ، فهو يعاونه على طريق الحق إن سار فيه ، ويدعوه الى سلوكه إن انحرف عنه ، أما الصديق الذى يجامل صديقه بالحق وبالباطل ، ويجده على ضلاله فلا يرشده ولا ينهاه ، فذلك قرين سوء ورفيق طريق يضر صديقه بسكوته ويخدعه بابتسامته والدين – كما بين رسول الله ﷺ – النصيحة . قالوا : لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ، ولأئمه المسلمين وعامتهم " [2] وهذه النصيحه ان كانت قولا حسنا أو كلمة لينة فانها

---

[1] الفرقان /٧٤

[2] رواه مسلم .

هداية حكيمة وموقف شجاع ، لأنها تكون أحياناً وقفة شجاعة فى وجه تيار جارف ، ومواجهة صلبه لباطل عنيد .

ولو أن أصحاب الرأى وأهل الفقه فى الدين عمموا دعوتهم وارشادهم فى الأمه ، وواصلوا هذه الدعوة فلم تفتر لهم عزيمة ، و لم تلن لهم قناة لكانوا رواداً لأمتهم ومعاقد لرابطة وحدتها ، وإذا عم التناصح بين أفراد الأمه فنصح كل أخ أخاه ، وذكر كل صديق صديقه لانحسر تيار الشر ، واستقر أمر الخير والمعروف بين الناس .

وللدعوة إلى الخير مجالات رحبه متعددة ، إذا أحسن استغلالها أنتجت خيراً ، فالأباء فى بيوتهم ، والمربون فى معاهدهم ، والخطباء فى دور العبادة ، والموجهون فى وسائل الإعلام كالصحافة والاذاعه وغيرها هؤلاء جميعا على ثغر التربية والتوجيه ، وهم يستطيعون . وقد تصدوا . لحمل الأمانة - أن يأخذوا الناس ، وبخاصة الشباب الذين يفتقدون المرشد إلى الطريق المستقيم .

ولقد نصح رسول الله ﷺ فكان داعيا بالحكمة والموعظة الحسنه ، وكانت نصيحته اللينه أبلغ من مواجهه عنيفة ، فكان أثرها فى النفس حميداً وفى القلب بليغا ، ولقد روى أبو أمامه أن غلاما شابا أتى النبى ﷺ فقال : يانبى الله أتأذن لى فى الزنى ؟ فصاح الناس به - أى ليزجروه - فقال النبى ﷺ : أتحبه لأمك ؟ قال : لا ، قال : أتحبه لابنتك ؟ قال لا ، قال أتحبه لأختك ؟ قال لا . فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره وقال : اللهم طهر قلبه واغفر ذنبه وحصن فرجه " فلم يكن شئ أبغض اليه من الزنى . [1] .

فالرسول ﷺ هنا يواجه رغبه جامحه بنصيحة هادئة ، ويتوج هذه النصيحة بدعوة تعطف القلب إلى الحق وتنأى به عن الباطل ، وهذه النصيحة تظل هادئه ما دامت قد وجدت أذنا صاغية ونفساً مستجيبه ، فإذا وجدت اعراضا وصادفت صدودا فلتتحول إلى انكار قوى أو استنكار صريح ، حتى يعلم أنصار الباطل أن للحق جنوداً ينكرون

---

[1] رواه أحمد باسناد جيد .

بمشاعرهم ويقاومون بأيديهم ، فلا تفشو المعصيه ولا يظهر المنكر على المعروف..

ولقد بين رسول الله ﷺ خطورة السكوت على الباطل ومهادنه الأشرار بقوله فيما يرويه ابن مسعود عنه : " ان أول ما دخل النقص على بنى اسرائيل ، أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فانه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض " ثم قال : " كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا ، ولتقصرنه على الحق قصرا ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم " . [1]

" ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون " [2] .

---

[1] رواه أبوداود والترمذى وقال حديث حسن .

[2] المائدة /٨٠-٨١ .